End of Hegemonic Illusion

Rethinking of American Power, Its Structural Limits

■ Dr. Mohammad al-Mustari[1]

Abstract

This article offers a critical reading of the discourse of American hegemony as it has become entrenched in international consciousness, highlighting the erosion of this discourse in light of profound geopolitical transformations that have revealed the limits of American power and its structural contradictions.

The analysis proceeds from the premise that this hegemony was not built on moral or civilizational superiority, but rather on strategic cunning and the exploitation of moments of international exhaustion, as in World War II. The article relies on the tools of symbolic critical analysis, drawing on the works of Foucault, Edward Said, Baudrillard, and Gramsci, to understand the role of the media, elites, and the global cognitive system in producing and promoting the illusion of hegemony. It also reviews major structural failures in Vietnam and Afghanistan, and the crises of sanctions and alliances.

The article concludes with a call for the liberation of strategic awareness and the establishment of an alternative cognitive and sovereign project that transcends dependency and establishes more equal and balanced international relations.

Keywords:

American Hegemony, Strategic Deception, Media, Knowledge and Power, Subordinate Elites, Critique of Power.

1 - Doctoral researcher in Sociology, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tofail University - Kenitra, Morocco

نهاية وَهْمِ الهيمنة

-في نقد خطاب القوَّة المطلقة الأمريكيَّة وحدودها البِنيويَّة-

■ محمد المستاري[1]

ملخّص

يقـدّم هذا المقال قراءة نقديَّة لخطاب الهيمنة الأمريكيَّة كما تكرّس في الوعي الدولي، مـبرزًا تآكل هذا الخطـاب في ضوء تحولات جيوسياسـيَّة عميقة، كشـفت حدود القوَّة الأمريكيَّـة، وتناقضاتهـا البنيويَّة. ينطلـق التحليل من فرضيَّة، مفادهـا: أنّ هذه الهيمنة لم تُبنَ على تفوق خُلُقيّ أو حضاريّ، بل تأسَّسـت على مكر استراتيجيّ، واستثمار لحظات الإنهاك الدَّوليّ، كما في الحرب العالميَّة الثانية. يعتمد المقال على أدوات التحليل النقديّ الرمزيّ، مسـتندًا إلى أعمال (فوكو)، و(إدوارد سـعيد)، و(بودريـار)، و(غرامشي)، لفهم دور الإعـلام، والنخب، والنظام المعـرفيّ العالميّ في إنتاج وَهْـمِ الهيمنة وترويجه. كما يسـتعرض إخفاقات بنيويَّة كبرى في فيتنام، وأفغانستان، وأزمات العقوبات والتحالفات. ويختتم بدعوة إلى تحرّر الوعي الاسـتراتيجيّ، وتأسـيس مشروع معرفيّ وسياديّ بديل، يتجاوز التبعيَّة، ويؤسِّس لعلاقات دَوليَّة أكثر نديَّة وتوازنًا.

الكلمات المفتاحية: الهيمنة الأمريكيَّة، المكر الاسـتراتيجيّ، الإعلام، المعرفة والسـلطة، النخب التابعة، نقد القوَّة.

---

١ - باحث بسلك الدكتوراه في علم الاجتماع، كليَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة ابن طفيل – القنيطرة، المغرب.

مقدِّمة

تتربَّع الولايات المتحدة الأمريكيَّة، منذ نهاية الحرب الباردة، على قمَّة النظام الدَّوليّ، بوصفها الفاعـل المركزيّ في صياغـة التوازنات الجيوسياسـيَّة، وإدارة النزاعـات، والتحكم في آليَّات الاقتصاد العالمي ومساراته. وقد ترسّخت صورة «القوَّة المطلقة» للولايات المتحدة، ليس فقط من خلال قدراتها العسكريَّة والتكنولوجيَّة والاقتصاديَّة، بل أيضًا عبر خطاب إعلاميّ وأكاديميّ ضخم، يسـوّق لها، بوصفها «قوَّة اسـتثنائيَّة»، تمتلك شرعيَّة القيادة والتدخّل باسـم «الحريَّة»، و«الديمقراطيَّة»، و«حقوق الإنسان».

لكن هذه الصورة المثاليَّة لا تصمد أمام تفكيك نقديّ للوقائع والتجارب التاريخيَّة والمعاصرة؛ حيث تبرز سلسلة من المفارقات البنيويَّة والتناقضات العمليَّة التي تشكّك في حقيقة هذه الهيمنة وجدواها. فهل تمثّل القوَّة الأمريكيَّة حقيقة استراتيجيَّة راسخة؟ أم أنّها وَهْم متقن الصياغة يُسوّق بمهارة عبر منظومة رمزيَّة متشابكة؟ وهل لا تزال الولايات المتحدة الأمريكيَّة تمثّل مركز الجاذبيَّة الدوليَّة كما كانت في السابق، أم أنّ قوَّتها تواجه حدودًا بنيويَّة آخذة في التآكل؟

إنّ مُساءَلَة «الهيمنة» هنا، لا تعني إنكار تفوّق مادّي أو تفوّق نسبيّ في مجالات معيّنة، بل تعني فحص شروط هذا التفوّق، وحدوده، وأوهامه. فكثير من الدول – خاصّة في العالم العربيّ – بنت خياراتها الاسـتراتيجيَّة والاقتصاديَّة على رهان «الحماية الأمريكيَّـة»، ودفعت -ولا تزال- تدفع أثمانًا باهظة نتيجة هذا الارتهان. لذلك، يصبح من الضروريّ، في هذا السـياق، تفكيك خطاب الهيمنة الأمريكيَّة، وفهم كيف يُصنع هذا الوَهْم، ولماذا يسـتمرّ رغم شواهد الواقع التي تنقضه، ومن المستفيد من إعادة إنتاجه داخل المنظومات الإعلاميَّة والسياسيَّة.

وعليه، لا يُقارب هذا المقال خطاب الهيمنة الأمريكيَّة من زاوية استراتيجيَّة أو سياسيَّة فحسب، بل يسعى أيضًا إلى مُساءَلة التمركز الأمريكيّ في إنتاج المعنى داخل الحقول الجيوسياسيَّة والمعرفيَّة. فالإشكال لا يقتصر على هيمنة الأدوات، بل يمتدّ إلى هيمنة التأويل؛ حيث تُحتكر مفاهيم، مثل «النظام العالميّ»، و«الحماية»، و«الشرعيَّة»، من موقع مركزيّ يدّعي الكونيَّة. ومن ثَمّ، تُعدّ هذه المساهمة محاولةً لتحرير النقاشات الفكريَّة والاستراتيجيَّة من هذا التمركز الرمزيّ، وفتح أفقٍ نظريّ بديل، يفسح المجال لتعدّد المواقع والمرجعيّات في فهم السلطة والعلاقات الدَّوليَّة.

أوَّلًا: خطاب القوّة الأمريكيَّة بين الواقع والوَهْم

من يقرأ الخارطة الجيوسياسيَّة الدَّوليَّة قراءة كمِّيَّة أو سطحيَّة، قد ينخدع بسهولة ببريق القوَّة الأمريكيَّة الظاهرة. فهي تمتلك أكبر اقتصاد في العالم، وتُنفق أكثر من أي دولة أخرى على التسلّح، وتُصدّر ثقافتها إلى أقاصي الأرض. لكن هذا التمظهر الكمِّيّ يخفي في طيَّاته تشقُّقات بنيويَّة عميقة، تكشف عن تناقض صارخ بين مظهر التفوّق وفعاليته الحقيقيَّة.

١. الاقتصاد الأمريكيّ: قوّة الدَّيْن لا قوة الإنتاج؟

لا شكّ أنّ الولايات المتحدة لا تزال تُعدّ قوّة اقتصاديَّة كبرى، بفضل هيمنة شبه مطلقة للدولار، وانتشار كثيف لشركاتها في الأسواق العالميَّة. لكنّ هذه الهيمنة تقوم، في جانب كبير منها، على آليّات الاستدانة والتمويل بالعجز، لا على إنتاجيَّة حقيقيَّة، أو توازن داخليّ مستدام. فقد تجاوز الدَّيْن العام الأمريكي، حتى مارس ٢٠٢٥، سقف ٣٦,٢ تريليون دولار، وفق بيانات وزارة الخزانة الأمريكيَّة[1]، بينما يُتوقّع أن يبلغ العجز الفيدراليّ السنويّ قرابة ١,٩ تريليون دولار خلال العام نفسه، بحسب تقرير مكتب الميزانيَّة في الكونغرس[2]. وعلى مستوى التجارة الخارجيَّة،

1 - U.S. Department of the Treasury, Monthly Statement of the Public Debt of the United States.

2 - Congressional Budget Office: The Budget and Economic Outlook: Fiscal Years 2025 to 2035.

سـجّلت الولايات المتَّحدة عجزًا تجاريًّا في السلع تجاوز ١,٢ تريليون دولار عام ٢٠٢٣، في دلالة على اعتماد متزايد على الواردات الرخيصة بدل التصنيع المحلِّيّ[١].

في هذا السياق، يمكن استحضار ملاحظة (نعوم تشومسكي- Noam Chomsky) عن الطابع «غير المستدام» للقوّة الامبرياليَّة، التي تستنزف ثروات الآخرين، وتُغلّف هذا الاستنزاف بخطاب التقدّم والازدهار[٢]. كما يشـير (إيمانويل والرشـتاين- Immanuel Wallerstein)، في تحليله لنظام الاقتصاد العالميّ، إلى أنّ الاقتصاد الأمريكيّ يعيش ما يسـمّيه «مرحلة القطبيَّة المتأخّرة»؛ حيث يتآكل التفوق بفعل التنافس الصاعد من قوى، مثل الصين والهند، وبفعل اختلال التوازن البنيويّ بين الإنفاق العسكريّ والإنتاج المدنيّ[٣].

٢. التفوّق العسكريّ وحدود السيطرة

من منظور كمِّيّ، لا تضاهي أيّ دولة في العالم حجم الإنفاق العسكريّ الأمريكيّ[٤]، ولا امتداد قواعدها العسكريَّة المنتشرة عبر أكثر من ٧٠ بلدًا وإقليما[٥]. لكنّ هذا التفوّق الظاهر لم يُترجم، خلال العقود الأخيرة، إلى سيطرة استراتيجيَّة حقيقيَّة، أو إنجازات استراتيجيَّة طويلة الأمد. فقد أخفقت الولايات المتَّحدة في حسـم حروب كبرى، رغم تفوّقها العسكريّ والتكنولوجيّ، كما في العراق وأفغانسـتان، وأظهرت محدوديَّة قدرتها على التأثـير في نزاعات إقليميَّة معقّدة، كما في سوريا واليمن وأوكرانيا.

إنّ هذا التناقض بين التفوّق العسكريّ الكمِّيّ والإخفاقات الاستراتيجيَّة المتكرّرة، يُذكّرنا بما

1 - U.S. Census Bureau, U.S. International Trade in Goods and Services: Annual Report 2023.

2 - Noam Chomsky: Hegemony or Survival: America's Quest for Global Dominancel, p.142.

3 - Immanuel Wallerstein: The Modern World-System I: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century, pp.15–18.

4 - Stockholm International Peace Research Institute (SIPRI), World Military Expenditure Grows to $2.44 Trillion in 2023, with the US Accounting for 37.5%.

5 - David Vine: The United States of War: A Global History of America›s Endless Conflicts, from Columbus to the Islamic State (Berkeley: University of California Press, 2020), pp.8–9.

قاله (ميشيل فوكو- Michel Foucault) عن علاقة السلطة بالقوّة: فالقوّة ليست فقط في التدمير أو الإخضاع، بل في القدرة على إنتاج الطاعة وتنظيم المجال. وكما يوضح (فوكو): «السلطة ليست مجرّد أداة قمع، بل هي منتِجة؛ فهي تنتج معرفة، وخطابات، وأشكالاً من الطاعة والسلوك»[1]. ولهذا، فإنّ محدوديَّة القوّة الأمريكيَّة لا تكمن في إخفاقاتها الميدانيَّة فحسب، بل في عجزها عن تأسيس نظام طاعة دائم يُعيد إنتاج النظام وفق شروطها، ما يجعلها أقرب إلى قوّة إخضاع ظرفيّ، لا إلى هيمنة مستدامة.

٣. تآكل القوّة الناعمة: من الجاذبيَّة إلى الرفض

كانت الثقافة الأمريكيَّة، في النصف الثاني من القرن العشرين، مصدرًا مُهمًّا للنفوذ الرمزيّ والسيطرة الناعمة. فقد اجتاحت السينما، والموسيقى، والتكنولوجيا الأمريكيَّة مخيِّلة الشعوب، وأسَّست لنموذج يُنظر إليه باعتباره رمزًا للتقدّم والحريَّة. لكن هذا البريق بدأ يخفت تدريجيًّا بفعل التناقضات البنيويَّة في الداخل الأمريكيّ: تصاعد العنصريَّة، والانقسامات الحزبيَّة العنيفة، وتفكّك الخطاب الديمقراطيّ، وفضائح التمييز العنصري والقمع الداخليّ.

في هذا السياق، يرى (جان بودريار- Jean Baudrillard)، في تحليله للثقافة الأمريكيَّة، أنّ ما يُقدَّم بوصفه «نموذجًا عالميًّا» ليس سوى «محاكاة رمزيَّة» (simulacrum)، تُخفي هشاشة بنيويَّة خلف واجهة لامعة من البهرجة[2]. لقد أصبحت القوّة الناعمة الأمريكيَّة، كما يضيف، ضحيَّة لنجاحها المفرط؛ إذ تحوّلت من أداة إقناع رمزيّ إلى آليَّة لتكرار الذات وتبرير السيطرة، ما أفقدها كثيرًا من مشروعيّتها الخُلُقيَّة في نظر شعوب الجنوب العالميّ.

ثانيًا: «شُرطيّ العالم» أم وكيل مصالح؟ تفكيك الخطاب التدخّليّ

من أكثر الصور التي تكرّست في الوعي العالمي بشأن الدور الأمريكيّ، هي صورة «شُرطيّ العالم» الذي يراقب، ويتدخّل، ويعاقب متى شاء وأين شاء، تحت ذريعة حماية «النظام الدَّوليّ»

1 - Michel Foucault: Discipline and Punish: The Birth of the Prison, p.194.

2 - Jean Baudrillard: Simulacra and Simulation, pp.6–7.

و«القِيَـم الكونيَّة». لكنّ هذا الدور المزعـوم لم ينبثق من شرعيَّة قانونيَّة دوليَّة، بقدر ما تشـكّل بوصفـه نتاجًا مباشرًا لاختـلال موازين القوى بعد الحرب العالميَّة الثانيـة، وتحديدًا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي؛ حيث استغلّت الولايات المتحدة فراغ القطبيَّة الثنائيَّة، لتقديم نفسها باعتبارها الضامن الوحيد للاستقرار العالميّ. لكنّ الممارسة العمليَّة لهذا الدور سرعان ما كشفت عن وجه مزدوج: خطاب كونيّ مُجمَّل بالشرعيَّة، ومصالح جيوسياسيَّة مُحرّكة بمنطق الهيمنة.

١. التدخّل باسم «الشرعيَّة الدوليَّة»: ازدواجيَّة لا اتساق

كثيراً ما تُبرّر الولايات المتحدة تدخّلاتها العسكريَّة أو الاقتصاديَّة تحت يافطات مثل «الشرعيَّة الدوليَّة» و«حماية القيم الديمقراطيَّة». لكنّ هذه المبرّرات تنهار أمام انتقائيّتها الصارخة في اختيار مناطق التدخّل وأطراف النزاع. فبينما شـنّت حربًا على العراق عـام ٢٠٠٣ دون تفويض أُمَمِيّ صريح، تقاعسـت عن التدخّـل في رواندا أثناء الإبادة الجماعيَّة سـنة ١٩٩٤، وغضّت الطرف عن انتهاكات جسيمة تُرتكب في دول حليفة، طالما لم تمسّ مصالحها الاستراتيجيَّة المباشرة.

يتجـلّى هذا التواطـؤ بوضوح في الصمت الأمريـكيّ المتكرّر تجاه الجرائـم الإسرائيليَّة في فلسـطين ولبنان؛ حيث تُمنَح إسرائيل غطاءً دبلوماسـيًّا وسياسـيًّا يحول دون أيّ مساءلة دوليَّة، رغم توثيق انتهاكات جسيمة للقانون الإنسانيّ الدوليّ من قِبل منظّمات أُمميَّة وحقوقيَّة مستقلّة.

يُحيل هذا التوظيف الانتقائي لمفهوم الشرعيَّة إلى ما وصفه (إدوارد سعيد) بـ«الخطاب الامبريالي»، الذي يوظّف مفاهيم نبيلة، مثل «الحريَّة»، و«حقوق الإنسان»، و«التحرير»، لتبرير التوسّع والهيمنة، وليس لخدمة المبادئ ذاتها. فالشرعيَّة، في هذا السـياق، لا تُمارَس باعتبارها قانونًا أُمَمِيًّا موحَّدًا، بل تُختزل في أداة خطابيَّة مرنة، تُطوّع وفق المصالح الجيوسياسيَّة، لا وفق مبادئ العدالة الدوليَّة[1].

٢. غياب التفويض الدوليّ والدور الاستعماريّ المقنّع

يتعارض التدخّل الأمريكي المتكرّر في شؤون الدول مع مبدأ السيادة الوطنيَّة المنصوص عليه

١ - إدوارد سعيد: الثقافة والامبرياليَّة، ص٢١.

في ميثاق الأمم المتحدة. فالولايات المتحدة لا تملك تفويضًا دائمًا أو شرعيًّا يخوّلها لعب دور «السلطة التنفيذيَّة الكونيَّة». ومع ذلك، تتعامل مع المؤسَّسات الدوليَّة باعتبارها أدوات وظيفيَّة تُفعّلها عندما تخدم مصالحها، وتتجاوزها حين تُقيّد تدخّلاتها، أو تُشكّك في مشروعيَّة أفعالها.

في هذا السياق، يُبرز (ميشيل فوكو)، في تحليله لعلاقة السلطة بالمعرفة، أنّ ما يُسمّى بـ «السلطة الخطابيَّة» يُمكّن القوى المهيمنة من إنتاج واقع، تُمارَس فيه السيطرة باسم القانون، حتى في غياب شرعيَّة مؤسَّساتيَّة حقيقيَّة؛ إذ ليست المسألة في وجود القانون، بل في احتكار تفسيره، وتحديد معاييره، وتطبيقه على نحو انتقائيّ[1]. وهو ما تمارسه الولايات المتحدة تحديدًا، حين تُنصّب نفسها المرجع الوحيد في تحديد من هو «الإرهابيّ»، وما هو «الاستقرار»، ومن يُمثّل «التهديد»، وفق أجندتها الجيوسياسيَّة الخاصّة.

ضمن هذا الإطار، يمكن النظر إلى الدور الأمريكي في العالم بوصفه امتدادًا لـ «استعمار مقنّع»، لا يُمارَس عبر الاحتلال المباشر، بل من خلال آليّات التفوّق الرمزيّ والاقتصاديّ، أو عبر التدخّلات العسكريَّة ذات الطابع «الإنسانيّ» أو «الوقائيّ»، كما يتجلّى في نماذج العراق وليبيا، أو من خلال الدعم الاستخباراتيّ واللوجستيّ في مناطق النزاع بأفريقيا وأمريكا اللاتينيَّة.

٣. تراجع الثقة الدوليَّة في الدور الأمريكيّ بصفته مؤتمنًا

مع تكرار التجارب التي كشفت محدوديَّة فاعليَّة التدخّلات الأمريكيَّة وانحيازاتها البنيويَّة، بدأ التآكل يصيب صورة الولايات المتحدة بصفتها قوّة «ضامنة» للأمن والاستقرار. لم تعد القوى الدوليَّة الأخرى - كألمانيا وفرنسا - ترى في واشنطن فاعلاً محايدًا، بل باتت تعدّها «مُحدِّدًا سياسيًّا عالميًّا» يفرض أجنداته الخاصّة على الجميع، حتى لو كان ذلك على حساب الشراكة والتحالف.

وقد كشفت السنوات الأخيرة عن مؤشّرات متراكمة لهذا التراجع: ازدياد اعتماد أوروبا على منظومات دفاعيَّة مستقلّة نسبيًا عن الناتو، وتصاعد النزعة السياديَّة في عدد من دول الجنوب،

---

١ - ميشيل فوكو: المعرفة والسلطة، ص٣٩.

وتنامـي النفوذ الروسيّ والصينيّ في مناطق، كانت تُعتـبر تاريخيًّا ضمن دائرة النفوذ الأمريكيّ، إلى جانب تصاعد الانتقادات الدوليَّة لتدخّلات واشنطن الاقتصاديَّة والعسكريَّة.

في هذا السـياق، يرى (جـان بودريار) أنّ «محاكاة القوّة الأمريكيَّة أصبحت مكشـوفة»، وأنّ «الولايات المتحدة لم تعد قادرة على تسويق صورتها كما في السابق»؛ لأنّ القوة – حين تنفصل عن الواقع – تتحوّل إلى عبء رمزيّ لا يُقنع أحدًا[1]. فلم تعد المصداقيَّة تُبنى وتمُنح عبر الخطاب وحده، بل على اتسـاق السياسـات مع القِيَم المُعلنة. وعندما تنكشف الهوّة بين القول والفعل، تتحوّل الهيمنة من جاذبيَّة إلى عزلة، ومن مركز استقطاب إلى مصدر ارتياب.

ثالثًا: الضحايا الجانبيّون لوَهْم الحماية الأمريكيَّة

يشـكّل خطاب «الحمايـة الأمريكيَّة» ركيزة أسـاس في بناء التحالفات الدوليَّـة التي تقودها الولايـات المتحدة؛ حيث تُقدَّم نفسـها ضامنًا للاسـتقرار، وقـوّة رادعة ضدّ كلّ مـا يهدّد أمن حلفائها. لكنّ التجارب التاريخيَّة والمعاصرة تكشـف عن هشاشـة هذا الادّعاء، ليس فقط من حيث الفعاليَّة، بل كذلك من حيث انتقائيَّـة الالتزام، وتقدُّم المصالح الذاتيَّة الأمريكيَّة على أي اعتبارات استراتيجيَّة مشتركة.

فعندما تتعارض مقتضيات «الحماية» مع الحسـابات الجيوسياسيَّة لواشنطن، تتبخر الوعود سريعًا، ويتبدّد الوَهْم، وتتكشّـف حدود القـوّة المزعومة، لا نتيجة لهجـوم خارجيّ، بل بفعل التناقضات البنيويَّة الكامنة في هذا الدور. ويمكن تسـليط الضوء على أربع حالات دالّة تكشف هذه المفارقة بوضوح:

١. كرواتيا - خذلان الحليف الصغير

تمثّل الحالة الكرواتيَّة نموذجًا دالًّا على وَهْم «الحماية الأمريكيَّة» وهشاشـتها، لا سيّما عندما يتعلّق الأمر بحلفاء صغار في مواجهة قوى إقليميَّة صاعدة. ففي سياق التوتر المتصاعد بين روسيا

1 - Baudrillard: Simulacra, p. 21.

والغـرب على خلفيَّة الحـرب في أوكرانيا، صرّحت كرواتيا - رسـميًّا أو ضمنيًّـا - بأنها في صفّ الولايات المتحدة، وأعلنت أنّ «أمريكا معنا». لكن واقع الحال كشف أنّ هذا الاصطفاف لم يُقابل بضمانـات ردعيَّة كافية، بل اقتصر الدعم الأمريكيّ على تصريحات رمزيَّة ومسـاعدات محدودة التأثير، ما جعل الحماية الأمريكيَّة أقرب إلى أداة طمأنة خطابيَّة منها إلى التزام استراتيجي فعليّ.

هـذا النمط من الخـذلان، يُعيد إلى الأذهان ما يسـمّيه (نعوم تشومسـكي) بـ «البراغماتيَّة الامبرياليَّة» حيث لا تقوم التحالفات الأمريكيَّة على أسـاس القيم أو المبادئ المعلنة، بل تُبنى على منطق الجدوى السياسـيَّة قصيرة المدى. فالحليـف الصغير، ضمن هذه الرؤية، يظلّ قابلاً للتجاهـل أو الإزاحة متى انتفـت فائدته في معادلة النفوذ الجيوسـياسيّ، أو أصبح عبئًا لا يبرّر الكلفة السياسيَّة[1].

٢. إسرائيل: حماية مشروطة وقلق استراتيجيّ

رغم خصوصيَّة العلاقـة التي تجمع الولايات المتحدة بإسرائيل، والدعم العسـكري الهائل الذي تتلقّاه سـنويًّا، فإنّ التطوّرات الأخيرة - خصوصًا في سـياق المواجهة مع إيران أو فصائل المقاومة الفلسـطينيَّة - كشفت عن حدود الحماية الأمريكيَّة. فالتحرّكات الإسرائيليَّة المتطرّفة، كثيراً ما تضع واشـنطن في مأزق خُلُقي ودبلوماسيّ، وتُظهر أنّ الدعم الأمريكيّ، على الرغم من مظهره المطلق، تحكمه توازنات دقيقة واعتبارات اسـتراتيجيَّة معقّدة، وقد يكون مشروطًا بعدم تجاوز «الخطوط الحمراء» التي ترسمها السياقات الدوليَّة أو مصالح الولايات المتحدة الأوسع.

تكشـف هذه العلاقة عن مفارقة مركزيَّـة في التحالفات الأمريكيَّة: فالقـوّة الحامية لا تكون بالضرورة مستعدّة للدخول في مغامرات غير محسوبة دفاعًا عن حلفائها، بل تحافظ على هامش مناورة يضمن حماية مصالحها أولاً. وهذا ما يجعل إسرائيل، رغم تفوّقها العسـكريّ، في حالة قلق اسـتراتيجيّ دائم، إدراكًا منها أنّ الغطاء الأمريكي قابل للتراجع، أو الانكفاء متى ما تغيّرت الحسابات، أو تعارضت المصالح.

1 - Chomsky: Hegemony, p.68.

٣. الدول العربيَّة - ارتهان مقابل تبعيَّة

يمثّل ارتهان عدد من الـدول العربيَّة للحماية الأمريكيَّة أحد أكثر تجلّيات هذا الوَهْم فداحة. ففي مقابل التسـلّح المسـتمرّ، والعقود الأمنيَّة، والتطبيع الاسـتراتيجيّ مع واشنطن، تفقد هذه الدول تدريجيًّا اسـتقلال قرارها السـياسيّ، وتدخل في علاقات تبعيَّة اقتصاديَّـة وأمنيَّة تُقوّض قدرتها على بناء قوة ذاتيَّة فاعلة، أو رؤية استراتيجيَّة مستقلّة.

وقـد أفرز هذا الوضع ما يمكن تسـميته - اسـتعارة من (ميشـيل فوكو) - بـ «العقل الأمنيّ التابع»؛ حيث تُبنى السياسات العامّة على أساس الخوف الدائم من الانهيار الداخليّ أو التهديد الخارجيّ، ما يعزّز منطق الاستنجاد بالقوّة الخارجيَّة، ويُفرغ السيادة من مضمونها الفعليّ[1].

والمفارقة أنّ هذا الارتهان لا يشـكّل ضمانة للحماية، بل قد يتحوّل إلى مصدر هشاشة مضاعفة، حين تصبح الأنظمة أكثر عرضة للابتزاز السـياسيّ، أو للتخلّي عنهـا في اللحظة التي تتعارض فيها أولويَّاتها مع الأجندة الجيوسياسيَّة الأمريكيَّة. ففي منطق التحالفات الأمريكيَّة، لا يتحقّق تثمين الولاء في حدّ ذاته، بل يُقاس كلّ شيء بميزان الجدوى والامتثال الكامل للأولويَّات الاستراتيجيَّة لواشنطن.

٤. إيران: تحدٍ بنيويّ لوَهْم الردع الأمريكيّ

قـد تمثّل الحالة الإيرانيَّة أحد أبرز الأمثلة على حدود فاعليَّة الردع الأمريكي. فعلى الرغم من العقوبات الممتدّة، والحصار الاقتصاديّ، ومحـاولات العزل الدبلوماسيّ، لم تنجح الولايات المتحدة في كبـح الطموح الإقليميّ الإيرانيّ أو منع تمدده عبر شـبكات النفوذ الجيوسـياسي والإعلامي. بل إن هذا «التهديد» الإيرانيّ، بكلّ ما يحمله من مضامين استراتيجيَّة ورمزيَّة، تحوّل إلى مرآة تعكس هشاشة المظلّة الأمريكيَّة في حماية حلفائها.

لا تقدّم إيران، في هذا السياق، نموذجًا لانتصار عسكري أو دبلوماسيّ حاسم، بقدر ما تقدّم نموذجًا لتفكيك «الخوف من أمريكا» باعتباره رأسـمالاً رمزيًّا لطالما اسـتثمرت فيه واشـنطن. فعندما تفقد التهديدات الأمريكيَّة صدقيّتهـا، ينهار أحد أعمدة الهيمنة: الردع الرمزيّ. وعندها،

1 - Michel Foucault: Security, Territory, Population, p. 23.

لا يكون الخطر في فقدان السـيطرة فحسـب، بل في فقدان الرهبة التـي كانت تضفي على هذه السيطرة معناها ومشروعيّتها.

رابعًا: دلائل تآكل الهيمنة الأمريكيَّة - من الماضي إلى الحاضر

رُوّج للهيمنة الأمريكيَّة، منذ نهاية الحرب الباردة، باعتبارها واقعًا غير قابل للتحدّي، وسُوّقت على أنّها قدر تاريخيّ لا مفرّ منه. فقد ارتبط هذا الخطاب بسلسلة من الممارسات والوقائع التي أعطت انطباعًا بوجود قوّة مطلقة قادرة على التدخّل وفرض النظام متى وأين شـاءت. لكنّ هذا الانطباع، عند إخضاعه للتحليل الزمنيّ والاستراتيجيّ، يكشف عن تناقضات جوهريَّة: نجاحات آنيَّة لم تُفضِ إلى اسـتقرار دائم، وتدخّلات عسكريَّة كرّسـت أزمات بدلاً من حلها، وتحالفات انهارت عند أول اختبار للمصلحة.

فالهيمنة التي تقوم على القسر، لا على التوافق، وعلى الردع لا على الشرعيَّة، سرعان ما تصطدم بحدودها البنيويَّة. وتجارب العقود الأخيرة تُبيّن بوضوح أن القوة الأمريكيَّة، رغم تفوّقها المادي، ليست عصيَّة على التآكل. نستعرض فيما يأتي نماذج دالّة تُجسّد هذا المسار الانحداريّ:

١. حرب فيتنام - الكابوس الاستراتيجي

تشكّل حرب فيتنام (١٩٥٥-١٩٧٥) لحظة مفصليَّة في تاريخ انكسار الهيبة الأمريكيَّة. فرغم التفوّق العسكري الساحق الذي امتلكته واشـنطن من حيث العتاد والتكنولوجيا والموارد، فقد عجزت عن حسم المعركة أمام مقاومة وطنيَّة مدعومة بإرادة صلبة ومعرفة دقيقة بالميدان. أجبرها نزيف الخسائر والاحتجاجات الشـعبيَّة الداخليَّة على الانسحاب، لتخرج بهزيمة رمزيَّة مدوّيَّة طالت صورتها بصفتها قوّة لا تُقهر.

لم يكن هذا الفشـل عسكريًّا فقط، بل معرفيًّا أيضًا، كما أشار (نعوم تشومسكي) حين تحدّث عن «عجز القوة الإمبراطوريَّة عن كسـب العقول»[1]، في إشارة إلى فقدان المشروعيَّة السياسيَّة

1 - Chomsky: Hegemony, p.98.

والخُلُقيَّة. لقد جسّدت فيتنام مأزق القوّة الأمريكيَّة: إمبراطوريَّة تمتلك أدوات القهر، لكنها تفتقر إلى أدوات الإقناع.

٢. أمريكا اللاتينيَّة - «الفناء الخلفي» ينقلب على الهيمنة

مثّلت أمريكا اللاتينيَّة، لعقود طويلة، ما يُعرف في الأدبيّات السياسيَّة الأمريكيَّة بـ «الفناء الخلفيّ»؛ حيث مارست واشنطن نفوذًا واسعًا من خلال دعم الانقلابات العسكريَّة، وتثبيت أنظمة استبداديَّة موالية، والتدخّل المكثّف في الشؤون الداخليَّة للدول، تحت ذريعة «مكافحة الشيوعيَّة» خلال الحرب الباردة.

لم تُفضِ هذه السياسات إلى استقرار دائم، بل خلّفت موجات من المقاومة الشعبيَّة، وإرثًا من انعدام الثقة في النموذج الأمريكي. فقد تحوّلت المنطقة من مجال خاضع للهيمنة إلى مختبر للممانعة، عبرّ عن ذاته من خلال صعود حكومات يساريَّة، وحركات تحرّريَّة، ومبادرات إقليميَّة تسعى إلى تجاوز منطق التبعيَّة وإرساء استقلاليَّة استراتيجيَّة.

في هذا السياق، يُبرز (إدوارد سعيد)، في تحليله للاستعمار المعرفي، أنّ الهيمنة الرمزيَّة والثقافيَّة لا يمكن أن تُفرض على المدى البعيد دون «قَبول داخليّ» فعليّ، وأنّ خطاب التقدّم حين يُستخدم لتبرير السيطرة، يُفضي في النهاية إلى مقاومة متجذّرة[١]. وهو ما يفسرّ تصاعد التحوّلات الجيوسياسيَّة في أمريكا اللاتينيَّة؛ حيث باتت بعض الدول تُعيد توجيه تحالفاتها باتجاه قوى دوليَّة صاعدة كالصين وروسيا، متحرّرة تدريجيًا من دائرة النفوذ الأمريكي التقليدي.

٣. العقوبات الاقتصاديَّة - سلاح مزدوج الحدّ

اعتمدت الولايات المتحدة، في العقود الأخيرة، بشكل متزايد على العقوبات الاقتصاديَّة باعتبارها أداة للضغط على الدول المناوئة، من إيران وكوريا الشماليَّة، إلى فنزويلا، وروسيا، وسوريا. وعلى الرغم من أن هذه العقوبات تسبّبت في معاناة اقتصاديَّة واجتماعيَّة كبيرة للشعوب،

١ - إدوارد سعيد: الثقافة والإمبرياليَّة، ص٤١.

فإنّ فعاليتها السياسيَّة والاستراتيجيَّة تبقى محدودة.

لا تُنتج العقوبات دائمًا تغييرًا في سلوك الأنظمة، بل كثيرًا ما تؤدّي إلى نتائج عكسيَّة، مثل تعزيز المشاعر الوطنيَّة، وتكريس منطق الاكتفاء الذاتي، والبحث عن بدائل اقتصاديَّة وتحالفات دوليَّة جديدة، كما حدث مع إيران التي وسّعت شراكاتها مع الصين وروسيا.

وفي هذا السياق، يُحيل تحليل (ميشيل فوكو) لآليَّات السلطة إلى فكرة محوريَّة؛ حيث يشير إلى أن «الرقابة الزائدة تُنتج أشكالاً غير متوقعة من المقاومة»[1]، وهو ما ينطبق على أدوات العقوبات حين تُستخدم بطريقة ميكانيكيَّة مفرطة، دون اعتبار للخصوصيات السياسيَّة والاجتماعيَّة للدول المستهدفة. فحين يُفرَط في استخدامها، تفقد العقوبات دورها الرادع وتتحول إلى أداة تُغذّي الصمود بدل الإخضاع، ما يُقوّض أحد رهانات الهيمنة الأمريكيَّة.

٤. الانسحاب الأمريكي من أفغانستان - انكشاف أوهام القوة

جسّد الانسحاب الأمريكي من أفغانستان في أغسطس ٢٠٢١ لحظة مفصليَّة في تاريخ تآكل الهيبة الأمريكيَّة. فعلى الرغم من عقدين من الحضور العسكري، وإنفاق تريليونات الدولارات، وتكبّد خسائر بشريَّة فادحة، جاءت لحظة الخروج بطريقة فوضويَّة كشفت عن عجز القوة الأمريكيَّة عن تحقيق أهدافها المعلنة: لا القضاء على طالبان، ولا بناء دولة مستقرة ذات شرعيَّة مستدامة.

لم يكن هذا الانسحاب مجرد نهاية حرب خاسرة، بل لحظة انكشاف عميق لوَهْم السيطرة العسكريَّة، وانهيار الخطاب الذي قدّم الولايات المتحدة كقوة قادرة على «إعادة هندسة» المجتمعات. وقد اعتبره كثير من المراقبين إعادة إنتاج رمزيَّة لمشهد سايغون عام ١٩٧٥، حيث لا يُقاس النصر بالعدّة والعتاد، بل بامتلاك المشروعيَّة وقدرة البقاء.

إن ما كشفته أفغانستان ليس فقط حدود التفوق العسكري، بل هشاشة نموذج الهيمنة ذاته، عندما يُبنى على تدخل خارجي لا يستند إلى قبول داخلي ولا يراعي تعقيدات المجتمعات المحليَّة.

1 - Foucault: Security, p.46.

٥. أزمة التحالفات - قوة بلا شرعيَّة

تواجه الولايات المتحدة اليوم صعوبات متزايدة في الحفاظ على تحالفات استراتيجيَّة طويلة الأمـد قائمة على الثقة والمصالح المتبادلة. فقـد أصبحت عدد من هذه التحالفات مشروطة أو محلّ تشـكيك، كما يظهر في توتّر العلاقات مع الشركاء الأوروبيين داخل الناتو، وفي التباينات المتكررة مع حلفاء تقليديين في الشرق الأوسط وشرق آسيا.

إن ما يتآكل هنا ليس فقط النفوذ، بل الشرعيَّة التي كانت تبرر هذا النفوذ. فحين تتحول القوة إلى غاية بذاتها، وتُستخدم بشـكل انتقائي لا يراعي التوازنات الدوليَّة والمحليَّة، تتراجع القدرة عـلى بناء شراكات حقيقيَّة. لم يعد العالم، في ظل تحولات النظـام الدولي، يقبل بقيادة أحاديَّة تُقصي التعدديَّة ولا تؤمن بالتكافؤ في العلاقات الدوليَّة.

هذا التآكل في شرعيَّة القيادة يفتح المجال أمام قوى بديلة، ويقوّض مستقبل الهيمنة الأمريكيَّة من داخل بنيتها، لا بفعل خصومها فحسب، بل نتيجة تآكل الجاذبيَّة السياسيَّة والخُلُقيَّة لمشروعها العالمي.

٦. الهيمنة بالخداع الاستراتيجي - حين تُصنع القوة في لحظة الإنهاك

لا ينبغـي النظر إلى الهيمنـة الأمريكيَّة باعتبارهـا حصيلة تفوق خُلُقـي أو مشروع حضاري مكتمل، بل هي – في جانب كبير منها – نتاج مكر استراتيجيّ في التعامل مع السياقات الدوليَّة. لقد صعدت الولايات المتحدة إلى مركز النظام العالمي في أعقاب الحربين العالميتين، لا بسبب دورها الحاسم فقط، بل بسبب اختيارها التوقيت المناسب للتدخّل بعد أن أنهكت القوى الكبرى الأوروبيَّة في حروب استنزاف مدمِّرة.

في الحرب العالميَّة الثانية، على سـبيل المثال، تبنّت الولايات المتحدة سياسـة الحياد طيلة المراحل الأولى من الصراع، تاركة بريطانيا والاتحاد السوفيتي يخوضان معارك الاستنزاف ضد النازيَّة. وعندما بدا أن الكفة قد تميل، تدخلت عسكريًا عام ١٩٤١ بعد هجوم بيرل هاربور، ليس فقط لإنهاء الحرب، بل لإعادة تشـكيل النظام العالمي وفقًـا لشروطها (اتفاقيّات بريتون وودز، وإنشاء الأمم المتحدة، ومشروع مارشال...).

هــذا النموذج من الحضور الأمريكي – الذي يبدو منقذًا في الظاهر – يُخفي في جوهره عقلاً استراتيجيًّا بارعًا في استثمار الإنهاك العام لصالح بناء الهيمنة. إنه صعود لا يقوم فقط على الردع أو الشرعيَّة، بل على إتقان انتظار اللحظة المناسبة لتكريس التفوّق بأقل كلفة ممكنة.

وهذا ما يجعل استمراريَّة القوة الأمريكيَّة اليوم ليست مجرد بقايا لتفوق عسكري أو اقتصادي، بل امتدادًا لعقيدة استراتيجيَّة تعتمد الخداع الإيجابي، وتوظيف اللحظة الحرجة لتظهير صورتها باعتبارها ضرورة تاريخيَّة لا غنى عنها. لكن العالم، في زمن الوعي المتزايد والبدائل الصاعدة، بدأ يكشف هذا النمط، ويعيد مساءلة الدور الأمريكي خارج الأساطير المؤسسة.

خامسًا: من يصنع وَهْم الهيمنة؟

لا يتشــكّل وَهْم الهيمنة الأمريكيَّة في فراغ، بل يتأسّــس على منظومة معقّــدة من الآليّات الرمزيَّة والوسائط المعرفيَّة والخطابات المسيطرة، التي تتولّى إنتاجه، وترويجه، وترسيخه في الوعي الجماعي العالمي. ولا تقتصر هذه المنظومة على الداخل الأمريكي، بل تمتدّ لتشــمل نخبًا فكريَّة وسياســيَّة دوليَّة، ومؤسسات أُمميَّة، بل وحتى قطاعات من المثقفين والنخب المحليَّة في دول الجنوب، ممن يســاهمون – بقصد أو بدونه – في إعادة إنتاج صورة أمريكا بوصفها المركز الذي لا غنى عنه.

إن التســاؤل عن «من يصنع هذا الوَهْم؟» هو، في جوهره، تســاؤل عــن بنيَّة القوة الرمزيَّة في النظــام الدولي، وعن المصالح التي تُخدم من خلال تضخيم صورة الولايات المتحدة بوصفها قوّة لا بديل لها، حتى حين تتآكل فعاليتها الواقعيَّة.

١. آليات الإنتاج الرمزي - الإعلام والنظام المعرفي العالمي

تُعد وسائل الإعلام الغربيَّة، وعلى رأسها المؤسسات الكبرى مثلCNN وBBC وFox News وThe New York Times، من أبرز الفاعلين في تشكيل الصورة «الأسطوريَّة» للقوة الأمريكيَّة. فهذه الوســائل لا تكتفي بنقل المعلومات، بل تُعيد صياغة الواقع داخل أطر سرديَّة تُضفي على التدخلات الأمريكيَّة طابعًا عقلانيًّا، ضروريًّا، بل و«مخلِّصًا»، ما يُعزّز مركزيَّة واشــنطن بوصفها القوّة المُنقذة.

وفي هذا السياق، يرى (جان بودريار) أن الإعلام لا يعكس الواقع، بل «يُنتج واقعًا آخر» من خلال ما يسميه المحاكاة (simulacrum)؛ حيث تُضخَّم الرمزيَّة وتُحجب الحقيقة[1]. فصور مثل «الجيش الذي لا يُقهر» أو «الدولة الحامية للديمقراطيَّة» ليست سوى تمثيلات مُفبركة تُوظَّف في خدمة سياسات الهيمنة، وتُروَّج عبر تقنيات خطابيَّة تجعل من التشكيك فيها أمرًا بالغ الصعوبة.

ولا يقتصر هذا الإنتاج الرمزي على الإعلام فقط، بل تشارك فيه أيضًا المؤسسات الدوليَّة، سواء السياسيَّة منها كالأمم المتحدة – حين تُوظَّف بانتقائيَّة – أو المعرفيَّة باعتبارها مراكز الفكر الأمريكيَّة ومؤتمرات العلاقات الدوليَّة. وهي مؤسسات تُسهم، كما يُحلل (أنطونيو غرامشي- Antonio Gramsci)، في ترسيخ ما يُعرف بـ«الهيمنة الثقافيَّة» (cultural hegemony)، أي فرض رؤية معينة للعالم بوصفها طبيعيَّة، وعقلانيَّة، ووحيدة ممكنة، ما يُقيّد قدرة الشعوب على تخيل بدائل خارج إطار الهيمنة الأمريكيَّة[2].

٢. النخب التابعة - الترويج المحلي للوَهْم

لا ينجح وَهْم القوّة الأمريكيَّة دون وجود وسطاء محلّيين – من سياسيين، وإعلاميين، وأكاديميين – يتبنّون هذا الخطاب

ويُعيدون إنتاجه داخل السياقات الوطنيَّة، مُقدّمين أنفسهم بوصفهم وكلاء رمزيين للهيمنة. ففي العالم العربي، على سبيل المثال، تُلاحظ مشاركة فئات واسعة من النخب في تسويق صورة الولايات المتحدة كـ«الضامن الوحيد للأمن»، و«الشريك الطبيعي للتحديث»، و«الحامي من الفوضى».

وغالبًا ما تُكرّر هذه النخب الخطاب الأمريكيّ إما بدافع المصلحة المباشرة (كالحصول على التمويل، أو ضمان الشرعيَّة الدوليَّة، أو الحفاظ على النفوذ السياسي)، أو نتيجة التكوين الثقافي والمعرفي في مؤسسات تتبنى النموذج الغربي معيارًا للتقدم والحداثة. وهنا تتجلى،

1 - Baudrillard: Simulacra, p.11.

2 - Antonio Gramsci: Selections from the Prison, p.245.

كما يشـير (إدوارد سعيد)، إحدى أبرز آليات الاسـتعمار الرمزي؛ حيث تتحوّل النخب المحليَّة في المجتمعـات التابعة إلى «امتـدادات داخليَّة» للهيمنة، لا من خلال السـلاح، بل عبر اللغة والخطاب والنموذج الفكري[١].

٣. غياب البدائل المعرفيَّة في العالم العربي

تكمن خطورة وهم الهيمنة الأمريكيَّة في أنه يجد بيئة حاضنة في ظل غياب رؤية نقديَّة مستقلّة في العالم العربي. فضعف الإنتاج المعرفيّ المحليّ، وتهميش مراكز البحث المستقلّة، واستمرار التبعيَّـة الثقافيَّة للمركز الغـربي، كلّها عوامل تُعطّل إمكانيَّة بناء تصـوّرات بديلة للقوة، أو بلورة قراءات اسـتراتيجيَّة تنطلق مـن الخصوصيَّات التاريخيَّة والاجتماعيَّـة للمنطقة، لا من مصالح الخارج وأطره المفاهيميَّة.

يشير (ميشيل فوكو) إلى أن السلطة والمعرفة متلازمتان، وأنّ «من يملك إنتاج المعرفة، يملك القـدرة على تحديد ما يجب التفكير فيه وما يجـب تجاهله»[٢]. وفي غياب مدارس نقديَّة عربيَّة حقيقيَّـة تُعيد التفكير في مفاهيم مثل «الحماية»، و«الشرعيَّـة»، و«الردع»، يظل المجال مفتوحًا أمام هيمنة معرفيَّة تُغلّف السيطرة بقيم كونيَّة، ظاهرها إنساني وباطنها استعماريّ.

إن غياب البدائل لا يعني فقط ندرة الإنتاج، بل يشـير أيضًا إلى غياب الشـجاعة المعرفيَّة في مساءلة المُسلَّمات، وتفكيك الخطابات المسيطرة، والانخراط في مشروع تحرّر رمزيّ، وفكريّ، يوازي مشروع التحرّر السـياسي. فالمعركة الحقيقيَّـة لا تُخاض فقط على الأرض، بل أيضًا في الذهن؛ حيث تُصاغ الهُويَّات، وتُمنح الشرعيّات، وتُحدّد الخيارات[٣].

وفي هذا السـياق، نبّه بعض المفكّرين العـرب إلى خطورة تمركز المعرفـة الغربيَّة وهيمنتها

---

١ - إدوارد سعيد: الثقافة والامبرياليَّة، ص١٥٢.

2 - Michel Foucault, Power/Knowledge, p.131.

٣ - محمد المستاري: «معركة الذاكرة: كيف تطمس القضيَّة الفلسطينيَّة في وعي الأجيال الجديدة؟»، موقع مجلة الرافد.

الرمزيَّة على الوعي المحلي، كما فعل (عبد اللطيف كمال) في نقده للمركزيَّة الثقافيَّة الغربيَّة[1]، و(عبـد الوهاب المسـيري) في تحليله لبنية الرؤية الغربيَّة للعالم بوصفها نمطًا تفسـيريًّا يُقصي الخصوصيّات غير الغربيَّة، ويُكرّس التبعيَّة الرمزيَّة[2].

خاتمة

يكشـف هذا المقال، من خلال تحليل نقدي متعدّد الأبعاد، أنّ الهيمنة الأمريكيَّة ليست بنية صلبة كما تروّج لذلك سرديّات التفوّق والانفراد، بل مشروع هشّ يقوم على التناقضات البنيويَّة، والمصالح المتغيّرة، والتراكمات الرمزيَّة التي بدأت في التآكل. فالولايات المتحدة، التي رُسمت لعقـود بوصفها «الضامن للنظام العالمي»، لم تُنتج هذا الموقع نتيجة تفوق خُلُقيّ أو حضاريّ، بل غالبًا ما رسّخته من خلال مكر استراتيجي، تمثّل في استثمار لحظات الإنهاك الدولي – كما حدث في الحربين العالميّتين – وتكريس دورها باعتبارها منقذًا ظاهريًا عبر آليّات تضليل القوة.

وقد بيّن المقال، عبر رصد التجارب التاريخيَّة والتحالفات المعاصرة، أن وَهْم الحماية، الذي تروّج له واشـنطن، يقوم على خطاب رمـزي لا على التزام فعلي، وأن تحالفاتهـا غالبًا ما تكون مشروطة، وانتقائيَّة، وقابلة للانهيار بمجرّد تعارضها مع حسـابات الربح والخسـارة. إن ما بدا، لفـترة طويلة، باعتباره قوة مطلقة، هو في الواقع قـوة متآكلة، غير قادرة على إدارة تعدديَّة عالميَّة متحرّكة، ولا على فرض نموذجها دون مقاومة.

لقـد تبيّن أن هذه الهيمنة لم تتأسـس فقط على القوة الصلبة (الحـروب، الردع، العقوبات)، بل على قوة ناعمة تتجلى في الإعلام، والمؤسسـات الدوليَّـة، والنخب التابعة، والبنية المعرفيَّة العالميَّة. فكما أشـار (ميشـيل فوكو)، من يملك المعرفة يملك القدرة على تحديد ما يُفكَّر فيه، وهو ما يفسّر كيف تتحوّل الهيمنة من مجرد سـيطرة سياسـيَّة إلى اسـتعمار رمزي يعيد تشكيل الإدراك والوعي. وفي السياق العربي تحديدًا، يتغذّى هذا الوهم بغياب بدائل معرفيَّة، وتهميش

١ - عبد اللطيف كمال: «نقد المركزيَّة الثقافيَّة الغربيَّة»، ص٣٧.
٢ - عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، ص٢١٣-٢٢٥.

الفكر النقدي المستقل، وهيمنة نخب محليَّة تُعيد إنتاج الخطاب الأمريكي، لا بدافع القناعة، بل بوصفه أداة لبقائها.

ومن هنا، لا يُعد نقد هذا النموذج موقفًا عدائيًا أو أيديولوجيًا، بل فعلاً تحرّريًّا فكريًّا يسعى إلى مساءلة الخطابات المهيمنة، وكشف آليّات السيطرة، واستعادة الفاعليَّة التاريخيَّة للشعوب والدول التي طالما وُضعت في موقع التبعيَّة والانتظار. فالحماية لا تُشترى من الخارج، بل تُبنى من الداخل عبر تراكم مؤسساتي ومعرفي طويل الأمد، يقوم على الثقة بالذات، وإرادة السيادة، والقدرة على إنتاج المعنى.

إن العالم المعاصر، بتصدّعاته الإمبراطوريَّة وصعود بدائله، يتيح فرصة نادرة للتحرّر من عقدة التفوّق الأمريكيّ، والانخراط في مراجعة عميقة لمفاهيم مثل «القوة»، و«الشرعيَّة»، و«التحالف»، و«الحماية»، ضمن رؤية استراتيجيَّة جديدة تتجاوز الخيارات الثنائيَّة بين التبعيَّة والانكفاء، وتفتح المجال أمام مشروع حضاري مستقل يقوم على الندّيَّة، والاستقلال، والتكامل.

نحو مشروع بديل: تحرّر الوعي الاستراتيجيّ

يتطلب تجاوز وهم الهيمنة الأمريكيَّة بناء وعي استراتيجي نقدي على عدة مستويات، لكن قبل رسم ملامح هذا الوعي، لا بد من التوقف عند نقطة ضروريَّة:

١. نقد الهيمنة لا يعني تمجيد البدائل

إن تفكيك الخطابات المؤسسة للهيمنة الأمريكيَّة لا ينبغي أن يُفهم باعتباره إعجابًا أو قبولاً آليًا بالبدائل الجيوسياسيَّة المطروحة، سواء تمثّلت في الصين، أم روسيا، أم غيرهما من القوى الصاعدة. فرغم موقعها الاعتراضي في النظام الدولي، فإن هذه القوى ليست بالضرورة نماذج مثاليَّة للعدالة أو التحرر أو الشفافيَّة، بل كثير من سياساتها يستحق مساءلة نقديَّة مستقلة.

إن المشروع البديل لا يقوم على مبدأ «عدو عدوي صديقي»، بل على تفكير مستقل ينطلق من الذاتيَّة المعرفيَّة والسياديَّة، ويتحرّر من منطق المحاور والتبعيَّة لأي قوة. فالرهان ليس على استبدال مركز مهيمن بآخر، بل على تفكيك المركزيَّة ذاتها، وبناء عالم متعدد الأقطاب، يتيح للأطراف أن تكون فاعلة لا مجرد تابعة.

٢. خلاصات استراتيجيَّة

في هذا الإطار، لا يصبح المشروع البديل مجرد موقف ضد الهيمنة، بل رؤية بنّاءة تنطلق من الذات وتؤسس لتحول حقيقي، مرتكزة على المبادئ الآتية:

أ. التحرر المعرفي: عبر تأسيس مدارس فكريَّة نقديَّة مستقلة تُعيد إنتاج المفاهيم من داخل السياقات المحليَّة، بدل إعادة استهلاك النماذج الغربيَّة الجاهزة.

ب. استعادة القرار السيادي: من خلال إعادة تعريف مفهوم الأمن، والتحالف، والمصلحة، بما يتلاءم مع الخصوصيات الوطنيَّة والإقليميَّة، لا مع الإملاءات الخارجيَّة.

ج. بناء القوة التراكميَّة: لا من خلال التسلح وحده، بل عبر مأسسة الإرادة الجماعيَّة، وتوطين التكنولوجيا، وتعزيز التكامل بين الفاعلين المحليين.

د. فك الارتباط الرمزي: مع الخطابات التي تكرّس التفوق الأمريكي بصفته قدرًا تاريخيًّا أو مرجعيَّة نهائيَّة، واستبدالها بسرديات تاريخيَّة نقديَّة تُنصف التعدديَّة وتُعيد الاعتبار للذات.

ه. تحقيق النديَّة العالميَّة: عبر الانخراط في شبكات بديلة، وتوسيع العلاقات مع القوى الصاعدة، وبناء تحالفات تقوم على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل.

إنّ تحرّر الوعي الاستراتيجي لا يعني الانغلاق أو الانعزال، بل الارتقاء من موقع التلقي إلى موقع الفعل، ومن موقع التبعيَّة إلى موقع النديَّة، ومن منطق «الاحتماء بالقوة» إلى منطق «بناء القدرة». فالمستقبل لا يُنتظر من الآخر، بل يُصاغ بالإرادة والمعرفة والعمل الجماعي.

المصادر والمراجع

باللغة العربيَّة

- بيير بورديو: التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة: درويش الحلوجي، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، لا ط، ٢٠٠٤.
- نعوم تشومسكي: الربح على حساب الشعوب: الليبراليَّة الجديدة والنظام الكوكبي، ترجمة: أسامة إسبر، دمشق، دار بدايات للطباعة والنشر، لا ط، ٢٠٠٧.
- إدوارد سعيد: الثقافة والامبرياليَّة، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠١٤.
- إدوارد سعيد: السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٨.
- ميشيل فوكو: المعرفة والسلطة، ترجمة: عبد العزيز العيادي، بيروت، المؤسسة الجامعيَّة للدراسات والنشر والتوزيع، لا ط، ١٩٩٤.
- عبد اللطيف كمال: «نقد المركزيَّة الثقافيَّة الغربيَّة»، مجلّة العربي، العدد ٤٣٩، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٥.
- محمد المستاري: «معركة الذاكرة: كيف تطمس القضيَّة الفلسطينيَّة في وعي الأجيال الجديدة؟»، مجلّة الرافد، يونيو ٢٠٢٥.
- عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، كتاب الهلال، عدد ٦٠٢، القاهرة، دار الهلال، لا ط، ٢٠٠١.

باللغات الأجنبيَّة

- Jean Baudrillard: Simulacra and Simulation. Translated by Sheila Faria Glaser. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1994. Originally published 1981.

- Noam Chomsky: Hegemony or Survival: America's Quest for Global Dominance. New York: Metropolitan Books, 2003.
- Congressional Budget Office: The Budget and Economic Outlook: Fiscal Years 2025 to 2035. Publication No. 60870. Washington, DC: CBO, January 17, 2025. https://cutt.us/rXeHo
- Michel Foucault: Discipline and Punish: The Birth of the Prison. 2nd ed. Translated by Alan Sheridan. New York: Vintage Books, 1995. Originally published 1977.
- Michel Foucault: Security, Territory, Population: Lectures at the Collège de France 1977–1978. New York: Picador, 2007.
- Antonio Gramsci: Selections from the Prison Notebooks. Edited and translated by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith. New York: International Publishers, 1971.
- SIPRI (Stockholm International Peace Research Institute): World Military Expenditure Grows to $2.44 Trillion in 2023, with the US Accounting for 37.5%. 2024. https://cutt.us/wHO2C
- U.S. Census Bureau. U.S. International Trade in Goods and Services: Annual Report 2023. February 2024. https://cutt.us/Q2fFm
- U.S. Department of the Treasury. Monthly Statement of the Public Debt of the United States. March 2025. https://cutt.us/ojJc8
- David Vine: The United States of War: A Global History of America's Endless Conflicts, from Columbus to the Islamic State. Berkeley: University of California Press, 2020.
- Immanuel Wallerstein: The Modern World-System I: Capitalist Agriculture and

the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century. New York: Academic Press, 1974.